مجموعة الرقائق
صفة المعية.. وأثرها على القلب
شهر ديسمبر 2012

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأمينه على وحيه، وحجته على عباده، وخِيرته من خلقه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد:

فإن الإيمان بأسماء الله وصفاته شطر باب الإيمان بالله عز وجل، وإن العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأشرفها وأعظمها، بل هو أصلها كلها، فعلى أساس العلم الصحيح بالله وبأسمائه وصفاته يقوم الإيمان الصحيح وتنبني مطالب الرسالة جميعها، فهذا التوحيد أساس الهداية والإيمان وأصل الدين الذي يقوم عليه، ولذلك فإنه لا يتصور إيمان صحيح ممن لا يعرف ربه، فهذه المعرفة لازمة لانعقاد أصل الإيمان، وهي مهمة جداً للمؤمن لشدة حاجته إليها لسلامة قلبه، وصلاح معتقده واستقامة عمله؛ وهي التي توجب للعبد التمييز بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الرب عما لا يليق به، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام؛ وذلك يتم كما هو معلوم بتدبر كلام الله تعالى وما تعرَّف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه إذ لابد لإثبات أسماء الله تعالي وصفاته من الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم؛ حتى تسلم للمسلم عقيدته التي هي مصدر فلاحه وسبب سعادته في الدنيا والآخرة وموضوعنا سوف يدور حول صفة المعية وإثباتها وما يترتب علي استشعارها من آثار قلبية وسلوكية.

اولا: الأدلة الواردة في إثبات صفة المعية

1 –من القرآن :

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وهي المعيَّة الخاصة التي مقتضاها العون والتسديد، والحفظ والتأييد، واللطف بالعبيد، ومَن كان الله معه فقد آوى إلى ركنٍ شديد..

وكقوله لموسى وهارون: ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه 46] وهنا تجد معية الله سبحانه لعباده المتقين الذين حفظوا أوامره، واجتنبوا نواهيه تقتضي النصر والتأييد لهم. وقوله تعالى: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ (التوبة: 40).

2–ومما ورد في السنة :

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني".

وكالحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يومًا فقال : يا غلام، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله" . رواه الترمذي وقال : حسن صحيح.

فمعنى هذه الوصية: أن من حفظ الله وراعى حقوقه، وجد الله معه في جميع الأحوال يحوطه وينصره ويحفظه بل ويوفقه ويؤيده ويسدده فإنه سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت، وهو تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تعالى يقول: ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها".

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق رضى الله عنه حينما كانت مطاردة قريش لهم على أشدها: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" .

- ولقد كان النبي– صلى الله عليه وسلم– وثيق الصلة بربه، ومستشعرًا معية الله في كل الخطوات والأسباب التي اتخذها للهجرة، فلم يركن إلى الأسباب ولكن إلى رب الأسباب، فالرسول– صلى الله عليه وسلم– يغادر بيته ويخترق صفوف المشركين، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو ﴿وجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: 9)، فلم يبقَ منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وعندما أحاط المشركون بالغار وأصبح منهم رأي العين طمأن الرسول– صلى الله عليه وسلم– الصديق بمعية الله لهما "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما"، وكما ذكر الله تعالى ﴿إلا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وجَعَلَ

كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 40).

3-وأجمع السلف -رحمهم الله- على إثبات صفة المعيه لله تعالى.

ومعية الله لخلقه تعنى أن الله تعالى مع خلقه بعلمه وقدرته مطلع عليهم وهو مستو على عرشه بائن من خلقه ولاتنافى بين معيته وعلوه على خلقه وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة مخالفة لأهل البدع من الحلوليه والاتحاديه وغيرهم.

من أقوال السلف:

**قال مسروق بن الأجدع: "من راقب الله في خطرات قلبه؛ عصمه الله في حركات جوارحه".

** وقال ابن المبارك لرجل: "راقب الله تعالى"؛ فسأله عن تفسيرها، فقال: "كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل".

**وقال أبو حفص لأبي عثمان: "إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك".

**وقال ابن القيم: "والمراقبة التعبد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة".

إن شعور المؤمن بمعية الله وصحبته دائماً يجعله في أنس دائم بربه، ونعيم موصول بقربه، يحس أبداً بالنور يغمر قلبه، ولو أنه في ظلمة الليل البهيم، ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين، ينشد ما قاله العبد الصالح يناجي ربه:

إن قلبا أنت ساكـــــــنه غــير محتاج إلى السرج

ثانيا: أنواع المعية

1. معية عامة:

وهي لجميع الخلق ، قال تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم ﴾ أي مطلع عليكم شهيد عليكم ، ومهيمن ومحيط وعالم بكم ، وهذا معنى قول السلف: إنه معكم بعلمه وإحاطته .

1. معية خاصة:

وهي لأهل التقوى والإحسان والصبر والإيمان ، والخاصة تنقسم إلى قسمين: مقيدة بشخص ، ومقيدة بوصف.

أما الخاصة المقيدة بوصف ؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ {النحل: 128}.

وأما الخاصة المقيدة بشخص معين؛ فمثل قوله تعالى عن نبيه : ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾، وقال لموسى وهارون : ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾{طه : 46}.
وهذه أخص من المقيدة بوصف.
فالمعية درجات: عامة مطلقة، وخاصة مقيدة بوصف، وخاصة مقيدة بشخص. فأخص أنواع المعية ما قيد بشخص ، ثم ما قيد بوصف، ثم ما كان عاماً. فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته، والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد.

بعض آثار المعية وأثرها على المسلم

1. إحساس المؤمن بحفظ الله له:

ويقينه أنَّ الله معه؛ يَسمعه إذا شكا، ويُجيبه إذا دعا، ويأخذ بيده إذا كبا، ويمدُّه إذا ضعُف، ويعينه إذا احتاج، ويلطف به إذا خاف، كلُّ ذلك من أسباب ارتياح النفس وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب وتيسير الأمر، وطيب العاقبة في العاجل والآجل؛ فإنَّ ثقة العبد بربِّه ويقينه بأنه – سبحانه – المتولي لأموره، وأنه – تعالى – سائقُ كلِّ خير، وكاشفُ كل ضر – لا تتركه نهبًا للوساوس والأوهام، ولا تلقيه في بيداء اليأس من روح الله، أو ظلمة القنوط من رحمة الله؛ بل تجعله يتضرع إلى الله – تعالى – عند كلِّ نازلة، ويستجير به عند كل مصيبة، ويشكره ويذكُره، ويحمده عند كلِّ نعمة ورحمة، فيتَّجه إلى الله في سائر أحواله، داعيًا متضرعًا موقنًا بالإجابة، منتظرًا للفرج من الله، لا يتَّجه إلى غيره، ولا يُنزل حاجتَه بسواه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، فيتذكَّر ربَّه في كلِّ أحواله ذاكرًا وشاكرًا على السرَّاء، وصابرًا ضارعًا منتظرًا للفرج عند الضرَّاء، ويسأل الله أن يجود عليه بحفظ النعماء، والعافية من البلاء، واللطف في القضاء.

قال قتادة : من يتق الله يكن معه، ومن يكن معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل .

ولقد كان بعض السلف يوصي إخوانه بكلمات نافعة عظيمة الأثر كتب بعضهم لأخيه: أما بعد: فإن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترجو.

2. استشعار معية الله ودورها فى صناعة الأحداث:

إن الإنسان الإيجابي في هذه الحياة هو ذلك الذي يملك موهبة أو مهارة أو حتى سمعة حسنة يشتهر بها في دنيا الناس ، هو من يفعل هذه المواهب والقدرات في المحيط الذي يعيش فيه ، ينفع بها ويصلح فيه .

ونحن في حاجة إلى المزيد من فئة صانعي الأحداث لأنهم وحدهم دون غيرهم الذين يستطيعون أن يغيروا وجه التاريخ .

وهذه الفئة لا يكتفي فيهم فقط توّفر المواهب الفطرية من فطنة وذكاء وقدرات إبداعية فقط ، فهذه المواهب و القدرات يجب أن تمزج بمعية الله الواهب، فيجب علي كل باحث عن التميز أن يتقن

فن استجلاب معية الله له في كل أعماله، يجب على كل من أراد الكسب أو السبق أو الفوز أو النصر أن يتعلم كيف يستجلب تلك المعية الإلهية له في كل أعماله صغرت تلك الأعمال أو كبرت فلا حول ولا طول ولا نصر ولا كسب ولا نجاح ولا فلاح إلا بالله العلي العظيم .

وكان هذا هو هدي رسولنا صلي الله عليه وسلم وديدنه في الأمور كلها . فكان صلي الله عليه وسلم يتقن هذا الأمر أيما إتقان. فكان إذا ما انتهي من مرحلة استغلال الإمكانات المتاحة أمامه والمواهب والقدرات المتوافرة تحت يديه, حتى يبدأ في مرحلة استجلاب معية الله .

ففي يوم بدر بذل المصطفى صلي الله عليه وسلم الوسع في الإعداد : فصف الجيش , وعبأ الجند, ورسم الخطط, وافترض الافتراضات, واحتمل الاحتمالات, حاور, وتشاور وغير وبدل .

وما أن انتهى من الاستفادة من كل هذه الإمكانات والقدرات المتاحة حتى انتحى صلي الله عليه وسلم يناجي ربه في دعاء عميق, ومناجاة حارة, وإلحاح شديد يستجلب بها معية الله . ابتهل صلي الله عليه وسلم وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه , فرده عليه الصديق – رضي الله عنه – وقال :

حسبك يا رسول الله , ألححت على ربك – يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك .

ولكن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان خير من يعلم أنه إذا ما امتزجت معية الله القادر بمواهب العباد وقدراتهم – مهما كانت محدودة – فحتما سينتج عن ذلك مخرجات تفوق قدراتهم على استيعاب آثارها الإيجابية اللامحدودة .

وقد كان جاء مدد السماء بطريقة فاقت عقول أهل الأرض وامتزج المدد الروحي بالمدد المادي .

يقول صاحب الظلال:

إن مرحلة استجلاب معية الله هي الحلقة الأضعف في حياتنا . فكثيرا ما تنسينا القدرات والخبرات والمواهب الخاصة مرحلة استجلاب معية الله . كثيرا ما نعتمد على مواهبنا وننسي الواهب . كثيرا ما نعتمد على قدراتنا وننسى القادر . كثيرا ما نعتمد على قوتنا وننسى القوي . وهنا نخسر الكثير .

ففي يوم حنين بذل المسلمون الجهد في إعداد المدد المادي الهائل : العتاد , العدد ,العدة , الكثرة في عدد الجند حتى اكتمل الهيكل العام للجيش على صورته المبهرة . حتى دخل العجب لقلوب البعض فقالوا :"لن نهزم اليوم من قلة " .

أنستهم قدراتهم البشرية استجلاب معية الله والاتكال عليه وحده لا على تلك الأسباب ،

لقد أتقن المسلمون يوم حنين مرحلة الإعداد ولم يتقنوا مرحلة الاستجلاب فكانت الانكسارة . كانت الانكسارة التي كان لابد منها لتعي الأمة أن مرحلة استجلاب معية الله من المراحل التي لا غنى عنها في حياة الأمم والأفراد والجماعات . كما وأنها سند كل إنسان في هذا الوجود مهما كانت قدراته ومواهبه.

3. معية الله والوقاية النفسية للمسلم:

توصل كثير من العلماء إلى أن العلاج الأمثل لكثير من الأمراض النفسية التي حاروا في علاجها كثيرا ليس سوى اللجوء إلى الدين، والاعتصام بعروة الإيمان الوثقى، وإشعار المريض بمعية الله والأنس به. ومن أبرز الأمراض التي كان الاستشعار بمعية الله هو العلاج الناجح لها مرض

(إحساس الإنسان بوحدته).

واعتقاد المسلم أنه يؤمن أن الله معه حيثما كان، فإن الله سبحانه يقول في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني" ويقول في كتابه العزيز: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ (محمد: 35). ولقد أقر الإسلام بفطرية الخوف عند الإنسان، وأنّ كل إنسان لا محالة خائف،كما قال تعالى: ﴿إن الانسان خلق هلوعا﴾ ولقد عالج هذا الخوف بأساليب منها استشعار معية الله تعالي.

ويمكن أن نمثل على ذلك بواقعة أمر الله لموسى وهارون –عليهما السلام– أن يذهبا إلى فرعون لدعوته ومخاطبته في شأن بني إسرائيل، وإجابتهما بأنهما يخافان من بطشه وعدوانه، لكنّ الله أخبرهما بأنّ عليهما ألاّ يخافا من بطش فرعون، وألاّ يخافا من تلك المواجهة لأنه –أي الله– معهما يسمع ويرى فقال سبحانه وتعالى: ﴿قالا ربنا إنّنا نخافُ أن يَفْرُطَ علينا أو أن يَطْغى قال لا تَخافا إنّني معكُما أسْمَعُ وأرَى﴾ [طه،45–46]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وإذ نادى ربُّكَ موسى أنِ ائتِ القومَ الظالمينَ قومَ فرعونَ ألاَ يتّقونَ قال ربِّي إنّي أخافُ أن يُكَذِّبونِ ويَضيقُ صَدْري ولا يَنْطَلِقُ لِساني فأرْسِلْ إلى هارونَ ولهم عَلَيَّ ذنبٌ فأخافُ أن يَقْتُلونِ قال كلاّ فاذْهَبا بآياتِنا إنّا معكم مُسْتَمِعونَ﴾ [الشعراء:10–15]، وقد استوعب موسى عليه السلام الدرس في مواقف أخرى لذلك عندما خوّفه قومه من متابعة فرعون لهم وإدراكه لهم أخبرهم بأنه مطمئن وليس خائفاً لأنّ الله معه قال سبحانه وتعالى: ﴿فلمّا تَراءى الجَمْعانِ قال أصحابُ موسى إنّا لمُدْرَكونَ قال كَلاّ إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين﴾ [الشعراء،61–62].

4. دوام مراقبة المؤمن لربه:

ممّا يجعله جاداً في المبادرة إلى العمل الصالح واجتناب أسباب غضبه سبحانه .فعلمُك بأنَّ الله معك يعني مراقبتك لله، فمن فعل ذلك وجد حلاوة الإيمان بالله.

كما فى حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلّه: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» متفق عليه. فهذا الرجل الذي دعته المرأة لم ينأ عن سبيلها إلا بمراقبة ربه.

5. تحسين العبادة وأداؤها على أكمل وجه:

فإن نبينا صلى الله عليه وسلم ذكر تعريف الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» متفق عليه. فالمرتبة الأولى عبادة شوق وطلب، فإن تعذَّر عبدتَ عبادة خوف وهرب. فالحديث صريح في أن مراقبة الله تدعو إلى تحسين العبادة.

قال ابن منظور رحمه الله: "من راقب الله أحسن عمله".

وعن معاذ رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أوصني. قال: «اعبد الله كأنَّك تراه، واعدُد نفسك من الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك بك من هذا كلِّه، هذا» وأشار بيده إلى لسانه. رواه ابن أبي الدنيا.

6. تقوية جانب التوكل فى قلب المؤمن:

وذلك حين يستصحب معية الله وتأييده لا سيما عند ملاقاة الأعداء في ساحات الجهاد . فإن إحداث التوكل في القلب يرجع إلي التأمل في آثار الربوبية ويقينه بصفات الله من سمع وعلم وقدرة وإحاطة وحفظ ورعاية وغير ذلك ....وهذا لابد وأن يأتي من قلب مستحضرا لمعية الله في جميع حركاته وسكناته فإنَّ التوكل للمؤمن من خير الخصال، وجليل الأعمال: قال تعالي﴿ ياأيها النبي حسبك الله﴾ وقال أيضا: ﴿ومن يتوكل علي الله فهو حسبه﴾ فقد رتب الحسب وهو الكفايه منه تعالي علي صدق التوكل عليه وهذه فضيلة التوكل والمتوكلين. فإن العبد إذا عظم رجاؤه في الله وأكمل توكله علي الله فإنه وإن كادته السماوات والأرض ومن فيهن فإن الله سيجعل له من أمره يسرا وسيجعل له من بينهما مخرجا.

هذه كانت بعض ثمرات استشعار معية الله تعالي في قلب العبد، وإلا فهناك الكثير والكثير من هذه الثمرات يستشعرها كل علي حسب إيمانه ويقينه بالله، فكلما تعلق القلب بالله والدار الآخرة ازداد قربه من الله وأنسه به وقل طمعه في القرب من الناس وما عندهم.

نسأل الله تعالي أن يرزقنا هذا الأنس به والاغتناء به عمن سواه آمين آمين وصلي الله علي محمد وآله وصحبه وسلم.